

دمشق

مَاقِبَلُ التَّارِيخِ

د. سلطان محسن

مقدمة :

دمشق مدينتنا العظيمة ، نعرف الكثير عن تاريخها القديم والحديث ولكننا نجهل كل قصتها في عصور ما قبل التاريخ، أو العصور الحجرية ، وهذه فرصة ثمينة لفتح صفحات تلك القصة ، وتعرّف وقائع وأحداث تبدو للوهلة الأولى وكأنها من عالم الخيال بينما هي وثائق علمية ثم الحصول عليها من خلال أبحاث أثرية - تاريخية منهجية ودقيقة .

لقد أصبحنا نعلم أن دمشق ومنطقتها، قد سكنت منذ مئات الآلاف من السنين، إلا أن الزمن أتى على الجزء الأكبر من الدلائل . كما أن سكان تلك العصور لم يعرفوا الكتابة ولم يسجلوا أحداثهم أو أفكارهم ومعتقداتهم . ونحن نحاول التعرف على كل ذلك ، وغيره ، عبر دراسة البقايا المادية التي خلفوها كالأسلحة والأدوات الحجرية ، والأبنية والأواني والفنون انتهاءً بفضلات الطعام وبقايا المستودعات والمواقد والمقابر . ولأن طبيعة حياة هؤلاء الناس قد اختلفت حسب الزمان والمكان فقد قسم الباحثون عصورهم الى أجزاء لها سماتها الخاصة . الجزء الأول من تلك العصور هو العصر الحجري القديم - الباليوليت - وفيه عاش الناس متنقلين خلف مصادر الصيد والالتقاط البريين

وما الى ذلك من ثروات الطبيعة الحرة ، والجزء الثاني هو العصر الحجري الحديث - النيولين - وفيه عرف الناس البناء واستقروا في قرى دائمة ومارسوا الزراعة وتدجين الحيوانات محققين درجة من التطور الاقتصادي - الاجتماعي أصبحت أرضية حفارة الانسان بمعناها الشامل . وبين هذين العصرين هناك عصر انتقالي هو العصر الحجري الوسيط - الميزوليت - الذي حمل صفات مشتركة من العصر الذي سبقه والعصر الذي لحقه .

لقد كان لبلاد الشام ، والحوضه دمشق ، دور مركزي في ذلك الزمن . إن ما نعرفه الآن تحت اسم محافظة مدينة دمشق وريف دمشق ، هي منطقة تشكل الجزء الشمالي من الاقليم الجنوبي الغربي في سورية وهي اطار جغرافي متجانس تفاعلت فيه عناصر طبيعة وبشرية ، جعلت منه أكثر المناطق تميزاً في العالم . لقد بدأ تشكل هذه المنطقة منذ ملايين السنين (العصر الكرياسي) واستمرت أحداثها الجيولوجية في العصور اللاحقة ، ولكن أهمها حصلت في الزمن الجيولوجي الرابع الرباعي ، إذ أخذت تلك المنطقة شكلها الجغرافي الراهن تقريباً ، فاستقر فيها تشكل السهول والجبال والوديان والأنهار .

ورغم أنه لم تحصل حتى الآن دراسات كافية للرباعي في منطقة دمشق إلا أن المعلومات المتوفرة الأولى تشير الى أنه في بداية الزمن الرابع كانت تغطي جزءاً كبيراً من هذه المنطقة بحيرة واسعة امتدت من منطقة الضمير في الشرق حتى الكسوة في الغرب ، ارتفعت شواطئ هذه البحيرة بين ١٠٠ - ١٢٥ م عن مستوى بحيرة العتيبة الحالية ، وذلك في العصر المسمى بالبليستوسن الباكر ، منذ حوالي مليون سنة خلت ، وكانت تتغذى ، ومنذ ذلك الوقت ، بمياه نهري بردى والأعوج ، إضافة الى الأمطار والأودية الفرعية والأنهار الموسمية الأخرى التي دلت على قيام مناخ بارد وماطر وانتشار غابات كثيفة على الجزء الأكبر من المنطقة . ومنذ حوالي نصف مليون سنة (البليستوسن الأوسط) حصل جفاف نسبي في المناخ وتراجعت شواطئ البحيرة حتى ارتفاع حوالي ١٥ م عن مياه بحيرة العتيبة وبذلك تقلصت مساحتها .

ومنذ حوالي ١٠٠.٠٠٠ سنة (البليستوسن الأعلى) توضحت حدود تلك البحيرة بشكل أفضل وأضحت تغطي منطقة أبعادها ، ٢٠ × ١٠ كم تقريباً ومركزها

بحيرتا العتيبة والهيجانة ، ومنذ ذلك العصر تشكلت في المنطقة التربة السوداء
الخصبة ، تربة غوطة دمشق ، نتيجة جملة نشاطات بحيرية - نهريّة - سيلية
حتية وغيرها .

وقد بقيت هذه البحيرة بين مد وجزر حتى حوالي عشرة آلاف سنة ق.م .
(بداية عصر الهولوسن) عندما حصل جفاف مناخي آخر وتقلصت حدود البحيرة
من جديد وشكلت شواطئ ارتفاعها ٦ - ٧ م فقط . واقتصرت فيما بعد على
بحيرتي الهيجانة والعتيبة^(١) . وعلى شواطئ بحيرة دمشق القديمة نشأت
مستوطنات هامة من عصور ما قبل التاريخ كما سنرى .

الانسان الأول في منطقة دمشق :

إن المعلومات الأولى حول انسان العصر القديم في منطقة دمشق تعود الى
الثلاثينات من هذا القرن ، أتت على يدهواة منوعين التقطوا الأدوات الحجرية
من هنا أو هناك ، ومن حوضه دمشق ، وادي بردى منطقة قطنا ، المزة ، وليس
مدينا للأسف أية معلومات عن تلك الأدوات أو مصيرها^(٢) .

وفي الستينات وصلتنا معلومات أدق عن سكان دمشق الأوائل فقد عثر في
مدينة دمشق نفسها أثناء أعمال الحفر والبناء ، وفي وادي بردى والغوطة على
أدوات حجرية ، هي فؤوس يدوية ، من النوع المسمى الأشولي ، والتي يعود
تاريخها الى حوالي مليون سنة خلت كما دلت على ذلك دراسات مناطق الساحل
السوري وحوض العاصي^(٣) لقد صنعت تلك الفؤوس ، وهي أدوات فعالة في الحفر
والقطع أو غيره ، من قبل الجماعات البشرية الأولى التي وصلت الى منطقة
دمشق منذ بداية العصر الحجري القديم وكانت من النوع المسمى الهومواركتوس
وهو انسان ظهر لأول مرة في افريقيا ثم انتشر تدريجياً الى بقية القارات وكان
يعيش من الصيد والالتقاط وبقى مستمراً حتى حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة
خلت بعده ظهر نوع جديد من البشر هو انسان النياندرتال الذي كان يملك
قدرات جسدية وفكرية أكثر تطوراً من سلفه وقد عثرنا على آثار هذا الانسان ،
ومعظمها أدوات حجرية على شكل سكاكين ومقاحف ، في كل مكان في حوضه دمشق
ووادي بردى وبخاصة في سهل الصحراء .

بعد انقراض النياندرتال وظهور الانسان العاقل السلف المباشر للانسان الحالي منذ حوالي أربعين ألف سنة ، أتت مرحلة غامضة امتدت حتى حوالي عشرة آلاف سنة ق.م ، غاب فيها الانسان وغابت آثاره ولم نعر الا على بعض الدلائل سواء من منطقة صيدنايا أم منين وعموماً هذه فترة فقيرة في المشرق كله ولا غرابة أن يكون عليه الوضع كذلك في دمشق . ولكن مع انتهاء العصر الحجري القديم اختلف الوضع وعاد الانسان ، والحضارة ، وبلا انقطاع الى هذه المنطقة .

المزارعون الأوائل في منطقة دمشق :

ان الاستيطان البشري الفعلي والأهم بدأ في منطقة دمشق منذ العصر الحجري الحديث . في هذا العصر حصلت تحولات بنيوية وحضارية جذرية في حياة الانسان الأول الذي تحول من حياة التنقل والصيد والالتقاط الى العيش في قرى دائمة وممارسة زراعة الحبوب وتربية الحيوانات . ان هذا التبدل « الثورة الزراعية » وضع حجر الأساس في نشوء المجتمعات الحضارية بمعناها الشامل . لذلك حظيت هذه المرحلة باهتمام خاص من قبل الباحثين^(٤) وتبين أن منطقة المشرق العربي القديم وبلاد الشام كانت مهد هذه الثورة بل أن حوضه دمشق أعطت شرارتها الأولى . وما العديد من التلال المنتشرة في الغوطة الا بقايا القرى الزراعية التي نشأت ومنذ العصر النيوليني . لقد كرّس الباحث الفرنسي هنري دي كونشون باسم المديرية العامة للآثار والمتاحف سنوات طويلة لدراسة المجتمعات الزراعية الأولى في منطقة دمشق ونقب في العديد من التلال (تل أسود ، تل الغريفة ، تل الرماد ، تل الخزامي) وحصل على نتائج أكدت معرفة الزراعة في هذه المنطقة ومنذ مطلع الألف الثامن ق.م أي قبل أية منطقة أخرى من العالم . وأصبحت أعماله مرجعاً لا غنى عنه لكل الباحثين في ظاهرة نشوء وتطور المستوطنات الزراعية الأولى . وتوضيحاً للموضوع سوف نعرض نتائج هذه الأعمال على مرحلتين: الأولى تتناول المجتمعات الزراعية الباكورة التي عاشت على امتداد الألف الثامن والنصف الأول من الألف السابع ق.م والمرحلة الثانية تعرض المجتمعات الزراعية المتطورة التي عاشت منذ النصف

الثاني للألف السابع ق م وحتى انتهاء عصور ما قبل التاريخ في نهاية الألف الرابع ق م .

المجتمعات الزراعية الباكرة :

الى الشرق من مدينة دمشق بين بحيرتي العتيبة والهيجانة يقوم تل أسود حيث أجريت أسبار دلت على حصول أربع مراحل استيطان متتالية في هذا الموقع (أسماها المنقب أسود آ ، اب ، ا١١ ، ا١١ب) لقد ضم المستوى الأول (IA) بقايا أقدم قرية زراعية في التاريخ فقد عثر هنا على كميات كبيرة من حبوب القمح والشعير والحمص والعدس المتفحمة التي زرعها سكان التل الأوائل وأرخت بطريقة الفحم المشع الدقيقة على حوالي ٧٨٠٠ سنة ق.م. (٦) ولكنهم بنفس الوقت التقطوا الحبوب والثمار البرية واصطادوا الثروات السمكية والحيوانية .

أقام سكان تل أسود في ذلك العصر في بيوت ، أكواخ ، صغيرة بيضوية أو دائرية قطرهما حوالي ٢ م ، غرست عميقاً في الأرض ، استخدموا في بنائها اللبن والطين والقصب وهي مواد متوفرة بكثرة في الوسط المستنقعي الذي يقوم فيه الموقع ، إلا أنها قابلة للتلف . ووجد في المستوطنة الكثير من مستودعات التخزين والحفر المليئة بالرماد مما يشير الى حرائق متكررة تعرض لها الموقع بل أن اسم التل بعد ذاته يشير الى ذلك ، لقد عرف السكان شيء الطين وصنعوا منه اللبن الذي كان له شكل محدب من جهة ومقعر من الجهة الأخرى ، واحتوى على عناصر بنائية مميزة وحملت سطوح هذا اللبن طبقات أصابع صانيعه ، ورصفت به ، وبانتظام ، أرضيات البيوت كما صنعت منه المصاطب والسطوح المرتفعة .

وبقي سكان تل أسود في مراحلهم يسكنون في نفس (IB ، 11) اللاحقة أنماط بيوت المرحلة الأولى . بين أنقاض قريتهم وجدنا العديد من أدواتهم وأسلحتهم التي استخدموها في حياتهم اليومية وبخاصة مناجل الحصاد وهي عبارة عن شفرات حيوانية حادة وطويلة تم تثبيتها على قبضات من الخشب أو العظم . وهناك رؤوس النبال من النوع المفرّض عند نهايتها المسماة « نبال الخيام » لأنها وجدت لأول مرة في موقع الخيام الى الغرب من البحر الميت في فلسطين ، وهذا دليل بعلاقات حضارية باكرة بين المنطقتين .

إن التنقيب المحدود في تل أسود لا يسمح لنا بتحديد معالم هذه القرية بالكامل ولا حقيقة علاقاتها مع المناطق المجاورة ولكن يلاحظ أن الوسط الفقير بالأحجار دفع السكان الى جلب موادهم الحجرية من مناطق بعيدة فقد حصلوا على أحجار الصوان من سفوح جبال لبنان الشرقية بل أنهم استوردوا حجر الاوسيدبان من الأناضول وقد أثبتت التحاليل أن اوسيديان تل أسود يعود في غالبته الى مناطق وسط الأناضول (موقع نمروت داغ) ومن أطراف بحيرة وان . كما أنهم استوردوا أنواعاً مختلفة أخرى من الأحجار النادرة التي صنعوا منهم الحلي وأدوات الزينة كما سنرى .

لقد شهدت المرحلة الثانية من حياة تل أسود (II) زيادة في السكان وانتشاراً أوسع للاستيطان فنشأت في الألف السابع ق.م . مستوطنة جديدة أخرى هي تل الغريقة (I) الواقعة الى الشمال قليلاً من تل أسود أي في نفس الوسط الجغرافي المرتبط ببحيرة دمشق القديمة وقد دلت الأسبار المحدودة في الموقع أن الناس قد أقاموا في بيوت بسيطة من الطين والقصب تشبه بيوت جيرانهم في تل أسود وأنهم تعاصروا في مرحلتهم الأولى مع سكان المرحلة الثانية في تل أسود . وفي هذا العصر تطورت تقنيات تصنيع الأدوات الحجرية فأصبحت المناجل أكثر فاعلية وأصبح لها أسنان كبيرة وظهرت رؤوس النبال ذات الساحة المسماة « نبال جبيل » لأنها وجدت لأول مرة في موقع جبيل في لبنان . كما ازداد استخدام الأزاميل والمكاشط والأدوات الزراعية الثقيلة ، كالرص والأجران والبلطات . لقد صنعت الأدوات الحجرية من نوع من النوى حضرت وفق تقنيات خاصة وأصبح لها شكل القارب مما سمح باستخراج الشطايا الطويلة والمنتظمة . وتطور استخدام الطين المشوي في صنع التماثيل وغيرها .

المجتمعات الزراعية المتطورة :

في النصف الثاني من الألف السابع ق.م . اتسع من جديد الاستيطان في حوضه دمشق فنشأت مستوطنة الغريقة الثانية الأكبر والأكثر أهمية من المستوطنة الأولى . ولكن التحول الأهم كان نشوء مستوطنة تل الرماد في وسط جغرافي جديد ومختلف بعيداً عن البحيرة وفي سفوح الجبال قرب قطنا حالياً ، وهي منطقة غنية بالأحجار كما أن أمطارها تسمح بنشوء الزراعة البعلية .

لقد حدد المنقبون ثلاث مراحل تطورية لمستوطنة تل الرماد (I , II , III) . المستوطنة الأولى أرخت على حوالي ٦٢٥٠ سنة ق م . أقام سكانها في بيوت متواضعة عبارة عن أكواخ بيضوية أو دائرية ، قطرها بين ٣ - ٤ م ، مغروسة في الأرض رصفت أرضها بالحجر أو طليت بالملاط الأبيض أو الطين وكانت جدرانها من الطين الدك والحجر . فصلت بين هذه البيوت مساحات واسعة قامت فيها أراضيات مبلطة بالحجر ومواقد وتنانير ومستودعات تخزين وهناك ما يشير الى أن سقوف بعض البيوت كان مقبباً . المستوطنة الثانية في تل الرماد ، أرخت على حوالي ٥٩٥٠ سنة ق م ، وعندها بلغت القرية أوج اتساعها وقدرت مساحتها بحوالي ٣ هكتار ومع أن مواد البناء في هذه المستوطنة لا تختلف عن سابقتها الا أن تنظيم الأبنية وأشكالها اختلف تماماً . فقد حدد هنا نمطان من البيوت ، الأول تمثله بيوت كبيرة ، مستطيلة أو مربعة راوحت أضلاعها بين ٥ الى متر ، وبلغت سماكة جدرانها حوالي المتر الواحد بنيت من اللبن المقولب والمجفف أساساتها من الحجر وأرضياتها من الطين أو الحجر ولكن هذه الأرضيات ليست مطلية بالجص ، الملاط ، الأبيض . ولا بد أن مثل هذه البيوت قد ضمت عائلات كبيرة بعد أن اتسع وتعقد النسيج الاجتماعي في القرية . والنمط الثاني مثلثة بيوت صغيرة جدرانها رفيعة (حوالي ٤٠ سم) من الحجر واللبن ولكن أرضياتها مطلية بالجص أو بالطين ، لقد انتشرت بيوت المستوطنين الثانية في تل الرماد حول شوارع مستقيمة وساحات عامة احتوت على مواقف ومستودعات تخزين . وتدل التحاليل أن السكان قد اعتمدوا على الزراعة بشكل خاص فزرعوا القمح والشعير والعدس كما زرعوا الكتان وهو نبات بحاجة الى ري منتظم مما يشير الى أنهم استطاعوا جر المياه الى حقول الكتان ولو من خلال السواقي البسيطة .

في المرحلة الثالثة والأخيرة من حياة مستوطنة تل الرماد ، والتي ليس لدينا تاريخ دقيق حولها ولكن نعتقد أنها بدأت بعد المرحلة الثانية مباشرة واستمرت حتى حوالي منتصف الألف السادس ق م ، في هذه المرحلة حصل تحول اقتصادي - اجتماعي هام في حياة سكان المستوطنين الذين تحولوا من مجتمع زراعي مستقر الى مجتمع رعوي متنقل . وهكذا تراجعت زراعة الحبوب وظهرت تربية الحيوانات

ودليلنا الى ذلك البيوت البسيطة على شكل حفر دائرية عميقة ضعيفة التنظيم والمتانة وتصلح لاقامة موسمية ومؤقتة فقط ، اضافة الى البقايا الغزيرة لعظام الماعز والغنم وغيرها من الحيوانات المدجنة . وهكذا نستطيع ومنذ ذلك العصر التحدث عن نشوء مجتمعين زراعي حضري مستقر والآخر رعوي متنقل تعايشاً وتعاملاً معاً . وهذا نمط لا زال سائداً حتى يومنا هذا يمثل البدو ، الذين يعتمدون على تربية المواشي ، والحضر الذين يعيشون من الزراعة .

لقد عثرنا في تل الرماد على كميات كبيرة جداً من الآثار المنقولة والتي تعطينا فكرة عن مواقع هؤلاء الناس وطبيعة أنشطتهم ، نذكر منها الأدوات الحجرية الصوانية والبازلتية والكلسية كالمناجل ورؤوس النبال والمكاشط والسكاكين والأجران والرحى والمدقات والبلطات والفؤوس والأواني الحجرية لحفظ وتخزين الطعام والشراب وهي أوانٍ صنعت بخاصة من الحجر الكلسي ، والجير ، بعد طحنه وتحضيره «الأواني البيضاء» ، وقد انتشرت في النصف الثاني من الألف السابع ق.م في العديد من المستوطنات المشرفية وسبقت ظهور الأواني الفخارية بقليل ولكن استخدامها تراجع واختفى مع معرفة تصنيع الفخار ، التي ظهرت بدءاً من المستوطنة الثانية في تل الرماد حيث ساد نمط من الأواني الفخارية ذات اللون القاتم المصقول المسمى فخار العمق^(٧) ويعتقد أنه مروراً بتل الرماد انتقل هذا الفخار جنوباً الى فلسطين . وهناك أدوات عظيمة عديدة كالمخارز والابر والملاعق والاشاط وغيرها من الأمور التي تدل على مجتمع تمكن من انتاج كل ما يحتاج .

بعد أن هجرت مستوطنة تل الرماد نشأت مستوطنة جديدة في تل الخزامي الى الشمال من تل أسود في غوطة دمشق ، سكنت خلال النصف الثاني للألف الخامس ق.م . لقد أظهرت الأسبار وجود قرية بيوتها صغيرة مستطيلة من اللبن كما كشف عن كميات كبيرة من الفخار الفاتح اللون والمطلبي بالملاظ الأحمر والمزخرف بالحز : وقد ساد هذا النوع من الفخار في العديد من المناطق الشرقية في لبنان وفلسطين بخاصة . وهناك أيضاً الأدوات الحجرية ، وأهمها المناجل والعديد من التماثيل البشرية والحيوانية من الطين والكرات والأقراص والمعاقل وما الى ذلك .

فنون ومعتقدات المزارعين الأوائل في حوضه دمشق :

لقد عثرنا في قرى المزارعين الأوائل في حوضه دمشق على ما يؤكد أن هؤلاء الناس قد تخطوا في نشاطهم اليومي مجرد تأمين الحاجات المادية المباشرة ، من طعام أو شراب ، لأفراد مجتمعهم ، ليعتنوا بأمور الفكر والفن والروح أيضاً . فهناك الحلبي والدمي والتماثيل والقبور التي تعكس نظام شعائرهم ومعتقداتهم . ونحن نلجأ الى تلك الوثائق الأثرية التي تدلنا ، وإن بشكل غير مباشر ، على عالمهم الروحي فهم أنفسهم لم يكتبوا ولم يدونوا أي شيء عن أفكارهم ومعتقداتهم . بل أننا لا نعرف أسماءهم ولا أسماء قراهم أو آلهتهم ولكننا نعتقد أنها الأصل الذي أتت منه معتقدات شعوب الشرق القديم المدونة بالخطوط المسمارية . لقد صور هؤلاء الناس حيواناتهم التي دجنوها ، صنعوها من اللبن المشوي بالنار أو المجفف أو الحجر . وجسدت البقر والماعز والغنم والغزال والخنزير ، تكرر بينها الثور وقرونه كثيراً ومن هنا نتحدث عن « الثور المقدس » وعبادة الثور منذ مطلع الألف الثامن ق م . هذه الحيوانات جسدها سكان تل أسود وتل الغريقة وتل الرماد وتل الخزامي في كل مراحل مراحل مستوطناتهم . كما جسده هؤلاء أنفسهم ولعل أروع ما أعطاه سكان تل أسود (المرحلة الثانية) هو التماثيل البشرية ، طولها بين ٣ - ٦ سم ، بعضها واقعي ومعبر جداً تظهر فيه المرأة «الالهة» جالسة ، وركها وأعضاؤها التناسلية مضخمة صدرها بارز ترفعه بيدها ، وهي غالباً بلا رأس أو بلا نهايات لأطرافها لأن التركيز انصب على مراكز الأمومة والجنس . وهناك تماثيل أخرى مبسطة عبارة عن أفخاذ عليها رأس مختزل أنفه كتلة صغيرة وعيونه حفرة ولا إشارة للفم ولا للأذان على الرأس عصبية تلفه تشبه « العقال » . ومن تل أسود وتل الرماد أيضاً أتت تماثيل عبارة عن عصي متطاولة أو ذات أشكال غريبة لا نستطيع تحديد معالمها بسهولة . ومهما يكن فهذا دليل آخر على عقيدة « الالهة الأم » التي استمرت زمناً طويلاً لدى مجتمعات الشرق القديم دون أن نعلم أن جذورها تقع في قرى المزارعين الأوائل منذ الألف الثامن ق م . ، وهي الأصل الذي أتت منه عشتار أو أفروديت وفيينوس (٨) .

لقد دفن الموتى وفق شعائر محددة ، في تل أسود ، غالباً ما فصلت الجماجم عن الأجساد التي دفنت مثنية ومطلية بالفره الحمراء مما يشير الى عقيدة معينة أعارت

الجماجم ، الرؤوس ، مركز العقل والروح ، اهتماماً خاصاً . وقد تجلى ذلك واضحاً في مستوطنة تل الرماد الأولى والثانية ، حيث وجد العديد من الجماجم البشرية ، معظمها يعود لفتيات يانعات ، وقد فصلت عن الأجساد وكشط لحمها وخلعت أسنانها وتم طليها بالملاط الكلسي الأبيض المحضّر ، بشكل خاص كمادة تحنيط وبشكل أعاد تصوير ملامح الوجه فظهرت العيون وقد أشير لها بكلس أكثر بياضاً كما ظهرت تقاسيم الفك الأسفل والرقبة وطلاي الرأس بالمفرقة الحمراء إشارة للشعر على ما يبدو . لقد وجدت جماجم تل الرماد على شكل مجموعات ، ثلاث مجموعات منها مجموعات كانت مطمورة في الأرض مقابل جدران أحد البيوت . ولكن أهمها كانت « طميرة » ضمنت حوالي اثنتي عشرة جمجمة مقولبة ، أي مطلية بالكلسي ، وموزعة على شكل مجموعات أصغر ضمن حفرة منتظمة بيضوية الشكل جدرانها من اللبن والأواني البيضاء وقد رافقت هذه الجماجم تماثيل من الطين بلغ ارتفاع بعضها حوالي العشرين سنتمتر ، تمثل أشخاصاً جالسين ، لها رقبة شكلها اسطواناني ونهايتها مسطحة من أجل أن توضع عليها الجماجم المقولبة ، على ما نعتقد ، وذلك من خلال ترافق هذه التماثيل مع الجماجم في أكثر من مكان .

لقد جرى نقاش طويل حول دور مثل هذه الجماجم وهل تندرج في إطار عملية بناء البيوت أي أنها « ودائع تأسيس » تبارك البناء وتقويه . أم أنها تجسيد لحضور الأموات بين الأحياء واستمرار حياة الأجداد والآباء بين الأحفاد والأبناء أم غير ذلك . ومهما يكن فإن جماجم تل الرماد ، وبالأخص المقولبة منها والمترافقة مع التماثيل ، كانت أثاثاً دينياً منزلياً تستخدم أثناء الشعائر الدينية فقط ، ثم يعاد حفظها في مكان مأمون ، وهي تدل على عقيدة « تقديس الأجداد » أو « تقديس الجماجم » التي انتشرت على مساحة واسعة في الألف السابع ق م . لدى المجتمعات الزراعية في بلاد الشام ، ولعبت دوراً جنائزياً في اجلال الأموات وتأكيد حضورهم ومباركتهم للأحياء وفي الربط بين الموت والحياة^(٩) .

ومن بقاياهم أيضاً تعرف أنهم أحبوا الزينة والظهور بالشكل الجميل فقد وجدت في كل المستوطنات الزراعية النيولينية أدوات زينة وحلي غزيرة ومنوعة كالخرز ، والأطواق ، والحلق والأساور والقلادات وقد صنعت من أحجار نادرة وشمينة بعد أن استوردوها من مناطق بعيدة وأجادوا من صقلها

وثقبتها وغير ذلك • وهكذا نجد المواد المصنوعة من أحجار الألباتر والكورنالين والسربتين والشيت والستياتبت والهيماتيت والابوسيديان والصدف والعاج والعظم والقواقع • بل وجدت في تل الرماد خرزة من النحاس الذي أظهرت التحاليل أن أصله يعود الى منطقة ارغاني في جنوب شرق تركيا وكل ذلك دليل علاقات وتبادلات تجارية وحضارية بعيدة المدى •

خاتمة :

لقد وصل الانسان الأول الى حوض دمشق منذ حوالي المليون عام ولكننا لا نعرف الكثير عن هؤلاء البشر الذين توضحت صورتهم مع مرور الزمن • إن مرحلة الاستيطان الأهم بدأت في هذه المنطقة منذ الألف الثامن ق.م • عندما اهتدى الناس الى البناء والزراعة والتدجين افنشأت مستوطنة تل أسود تلتها مستوطنة الغريقة ثم مستوطنة تل الرماد ثم تل الخزامي وما أن حل الألف الرابع حتى دخلت المنطقة في العصر الحجري النحاسي الذي ازدهرت فيه الحضارة الغسولية والتي بانتهائها انتهت عصور ما قبل التاريخ وبدأت العصور التاريخية القديمة وذلك منذ مطلع الألف الثامن ق.م •

إن هذه الصورة لحوض دمشق هي جزء لا يتجزأ من لوحة أكبر مسرحها بلاد الشام كلها لأن تاريخ الانسان والحضارة في هذه البلاد قد تكاملا ومنذ البداية • ففي الوقت الذي وصل فيه الهوارلتوس الأول الى وادي بردى كانت وديان الأردن والليطاني والعاصي والفرات مسكونة من قبل النوع ذاته من البشر • كما أن النياندرتال انتشر على كل المناطق الجغرافية الساحلية والداخلية والصحراوية في بلاد الشام والشرق • وعرفت هذه البلاد مرحلة متشابهة من الفقر الحضاري الذي تلا انقراض النياندرتال لتعود لها من جديد الحيوية والانسان وتنشأ فيها المجتمعات المستقرة والقرى الزراعية الأولى ، وفي الوقت ذاته تقريباً ، من وادي الفرات في الشمال مروراً بحوض دمشق في الوسط وحتى وادي الأردن في الجنوب ، حيث عاشت مجتمعات واحدة لها ليس فقط النشاط الاقتصادي نفسه وانما اعتمدت الشعائر والمعتقدات ذاتها مجسدة وحدة حضارية هي الأكثر وضوحاً والأبكر ظهوراً في التاريخ ، بل أن هذه المجتمعات كانت تنتمي في صفاتها الانثروبولوجية الى العرق المتوسطي النحيل ذاته الذي سكن بلاد الشام منذ العصر الحجري الحديث (١٠) •

□ الخواشي :

- ١ - فان لير خبير تربة لدى الحكومة السورية في الخمسينات ولكنه كان منهمكاً جداً بدراسات العصور الحجرية وقد استفاد من تنقله في مختلف مناطق القطر وحصل على معلومات مختلفة ، بعضها يعاد النظر فيه الآن ، ولكنها فتحت أعين الكثيرين على أهمية دراسات تلك العصور في سورية وقد نشر كتاباً صغيراً هو :
W. Y. Van Liere 1960 - 1961, Observations on the Quaternary of Syria.
ملاحظات عن الرباعي السوري • منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق .
- ٢ - أنظر :
Potut. L. 1937, La prehistoire de la region de Damas, B.S.P.F. 34, p. 130-132.
- ٣ - فان لير نفس المرجع رقم ١ .
- ٤ - ظهر العديد من الكتب والمؤلفات التي تناولت ظاهرة الزراعة من حيث مكان وزمان وكيفية نشوئها والأسباب التي دفعت لها وتباين الآراء حول هذا الموضوع من باحث لآخر ، ولكن الاجماع قائم على أن بلاد الشام هي موطن الزراعة الأول • أنظر :
Redman, Ch. 1978, The rise of civilisation, San-Francisco : Freeman.
Cauvin, J. 1978, Les premiers villages de Syrie - Palestine, du IXème au VIIème au millénaire avant J. C. Lyon Maison de l'Orient.
- ٥ - وتدل الأبحاث على أن جملة شروط بيئية وحضارية قد توفرت في بلاد الشام منذ الألف التاسع ق.م ساهمت في الانتقال نحو الزراعة وتدجين الحيوانات قبل مناطق عالمية أخرى •
عمل السيد هنري دي كونتسنسون (H. de Contenson) في حوض دمشق بين أعوام ١٩٦٣ - ١٩٧٤ ونشر تقارير أولية عن أعماله في عدة مجلات عالمية بينها مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، ولكنه حتى الآن لم ينشر الدراسة النهائية لهذه الأعمال •
- ٦ - أنظر :
Zeist, W. Von and Y. A. H. Bakker - Harris 1949 Some economic and ecological aspects of plant husbandry of Tell Aswad. Paleorient 5: 161 - 180.
- ٧ - كان الباحث الأمريكي روبرت بريدوود أول من درس منطقة العمق في شمال سورية بحثاً عن أصل الزراعة ونقب في عدة تلال أهمها تل الجديدة حيث تعرف على مختلف مراحل تطور الأواني الفخارية منذ الألف السادس ق.م وحتى العصور العربية الإسلامية ومن أهم منشوراته حول هذه الأعمال :
- Braidwood, R. Y. and L. S. Braidwood, 1960, Excavations in the Plain of Antioch, Oriental Institute publications Nr. 61. Chicagu University Press.
- ٨ - أنظر :
Cauvin, J. 1987, l'Apparition des Premieres divinités la Recherche nr. 194, Vol. 18, p. 1472 - 1480.
- ٩ - أنظر :
Cauvin, J. 1972, Religions Neolithique de Syro-Palestine, Paris, Maison neuve.
وهو مترجم الى العربية بعنوان : ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام • دار دمشق •
ترجمة : سلطان محيسن •
- ١٠ - أنظر :
Ferombach, D. 1973, l'Euolution Humaine au Proche - Orient, Paleorient 12, p. 213 - 221.